عنوان المحاضرة: القراءة النسقية

الجمهور المستهدف: طلبة السنة الثالثة ليسانس، تخصص نقد ومناهج.

أهداف الدرس : في نهاية الدرس سيتمكن الطالب من معرفة القراءة النسقية ومرتكزاتها كما سيتعرف على أنواع القراءات النسقية التي عرفتها الساحة النقدية .

المناهج النسقية

يطلق مصطلح المناهج النسقية على المناهج التي تركز على نسق النص أو على النظام الذي يحكم النص بمعزل عن الظروف الخارجية والملابسات المحيطة، والمناهج النسقية تشمل البنيوية والأسلوبية والسيميائية وتسمى أيضا بالمناهج الشكلية أو مناهج الحداثة، حيث تهتم حصرا بالبنية الشكلية للنص المتمظهرة في التراكيب اللسانية واللغوية في علاقاتها الخلافية ومن هنا تقوم البنيوية على تتابع منظم من العمليات العقلية التي تخضع النص إلى عمليتي التفكيك ثم الربط ، أو تحليل عناصر النص إلى وحداته الأولية تمهيدا لإعادة تركيب الموضوع على نحو يكشف به عن الدلالة العلائقية للعناصر وأبعادها الوظيفية (جابر عصفور : نظريات معاصرة).

وتبدأ المناهج النسقية بإلغاء المؤلف وملابسات نشأة النص وكل ما يحيط به، وإلغاء حتى الذات القارئة فلا يبقى إلا النص وليس غير النص، ثم يبدأ تحليل النص من مبدأ المحايثة الذي يقارب النص بمكوناته اللغوية واللسانية التي لا تحيل إلا إلى داخل النص وفضائه اللغوي البنيوي أو الأسلوبي أو العلاماتي.

وهناك مناهج مابعد الحداثة بداية بالتفكيكية التي ثارت على سلطة النص في الدراسات البنيوية والشكلية، ونظرية القراءة التي تركز على القارئ وتفاعله في تلقي النص الأدبي، والتأويل الأدبي الذي يفتح النص على إمكانات دلالية متعددة تتجاوز المعنى الواحد والحصري في الدراسة البنيوية، ونظريات النقد الثقافي التي تركز على الأنساق المضمرة في النص فيما بعد الكلونيالية والنسوية والإمبريالية والسلطة والهيمنة والتقنية والميديا...

القراءة البنيوية:

أعلنت البنيوية عن منطلقها في قراءة النصوص الأدبية الذي هو : البنية" فكل بنية هي لا محالة مجموعة علاقات تتبع نظاما معينا مخصوصا، وهكذا تحول المنهج المعرفي من محاولة معرفة " ماهية" الشيء إلى كيفية" ترابط أجزائه وعملها مجتمعة" فلم تعد الغاية من دراسة النص الأدبي الوصول إلى المضامين والمعاني والكشف عنها، بل الغاية في ذلك هي الكشف عن تلك اللغة باللغة لا بسواها، قاطعة صلتها بكل المؤثرات الخراجية بما فيها الذات الكاتبة والذات المتلقية، ناصبة العداء للتصورات التقليدية القاصرة، فقد " جاءت البنيوية رد فعل على التصورات التقليدية السائدة، ودعت إلى فهم مختلف وجديد للأدب والنص" في ضوء الموضوعية والدقة والوضوح. قلبت هذه الرؤية الجديدة المفاهيم

والتصورات رأسا على عقب، فبعدما كان ينظر إلى النص كنتاج لعوامل خارجية عنه تتحكم فيه أيما تحكم، أصبح ينظر إليه في ضوء المنهج البنيوي على أنه بنية مستقلة مكتفية بذاتها، فهو ل يعكس الواقع بل ينتجه.

تنطلق البنيوية في نقدها للأدب من المسلمة القائلة بأن البنية تكتفي بذاتها، ولا يتطلب إدراكها اللجوء إلى أي عنصر من العناصر الغريبة عنها أو عن طبيعتها، والنص الأدبي النثري أو الشعري هو بنية تتكون من عناصر، وهذه العناصر تخضع لقوانين تركيبية تتعدى دورها من حيث هي روابط تراكمية تشد أجزاء الكيان الأدبي بعضه إلى ببعض، فهي تضفي على الكل خصائص مغايرة لخصائص العناصر التي يتأف منها النص " فالبنية هي دلك الكل المنظم الشامل لمجموعة من العلاقات، إذ أن القيمة بناء معنى تقاس بمدى قدرتها على تنشيط أكبر قدر ممكن من عناصر النص، وجعلها تدل على معنى بطريقة منسجمة"

يعد النص الأدبي في نظر البنيوية، بنية مكتفية بذاتها تحكمها ثلاث مميزات، وهي الشمولية أو الكلية والتحولات، والضبط الذاتي، كما يبين ذلك كل من "ميجان الرويلي"، وسعد البازعي، حين قالا:" فالبنية لابد أن تتصف بالشمولية والتحول وذاتية الانضباط، والشمولية تعني اتساق تناسق البنية داخليا، أي أن وحدات البنية تتسم بالكمال الذاتي وليست مجرد وحدات مستقلة جمعت معا قسرا وتعسفا، بل هي أجزاء تتبع انظمة داخلية من شأنها أت تحدد طبيعة الأجزاء وطبيعة اكتمال البنية ذاتها، وهكذا تضفي هذه القوانين على البنية خصائص أشمل وأعم من خصائص الأجزاء التي تتكون منها البنية".

القراءة السيميائية:

توقع عالم اللسانيات فرديناند دي سوسير بميلاد علم جديد، يعنى بدراسة العلامات أطلق عليه اسم السيميولوجيا، وقد " شاع استخدام السيميائية باعتبارها علما للعلامات بعد ظهور كتاب دي سوسير 1916، ويستخدم بعضهم للدلالة على المعنى نفسه مصطلحا آخر هو Sémiotiques، الذي يرجع الفضل في صياغته لعالم اللسان الأمريكي شارل ساندرس بيرس ، وقد مر بنا دي سوسير عند الحديث عن العلامة وعن الاتصال، وتنبأ بظهور علم الإشارات أو السيميولوجيا، متوقعا لعلم اللغة أن يكون فرعا مهما من فروع هذا العلم"

بمعنى أن السيميولوجيا أعم من اللسانيات، كونه لا يدرس العلامات اللغوية فحسب، بل يدرس كذلك العلامات غير اللغوية، و" بشكل عام السيميولوجيا ... هي دراسة كل الأنظمة الدالة إلى جانب اللغوية، كالعلاقات الاجتماعية والفنون...." فجاء رولان بارت ليقلب متراجحة دي سوسير الألسنية السيميائية إلى المتراجحة الجديدة الألسنية، مبينا أنه حتى العلامات غير اللغوية لا يمكن أن تفهم بمعزل عن اللغة، لأن العلامة لا تكون علامة ما لم تدل على معنى، وإذا لم تصغ في قالب لغوي واضح.

عرف هذا العلم الوليد السيميائية بتسميات عديدة لأسباب منها يعود للبيئة الزمانية والمكانية والخلفيات التاريخية، وأدى هذا إلى حيرة واختلاف في ترجمة المصطلح، سواء عند الأروبيين أم الأمريكان أم العرب، والنتيجة كانت ركاما

مصطلحيا (السيميائية ، السيميوطيقية، العلامية، الإشارية، علم العلامات، علم الإشارات، الأعراضية، الدلائلية ..." إلا أن المصطلح الشائع هو السيميائية.

والسيميائية تعنى أول ما تعنى بدراسة العلامات وبما تحمله من قيم اجتماعية وثقافية، يتساءل سعيد بن كراد في معرض حديثه عن اقتران العلامة بثقافة المجتمع المتواضع عليها قائلا" ألا يمكن القول إذن أن السيميائيات هي فن المقام الأول صيرورة لتحويل العالم من الحالة السديمية والأحادية وانعدام الشكل إلى ما يحدد الأشكال المختلفة للإدراك" ذلك أن العالم يتكون من علامات تكتسب معانيها بفضل الصيرورة التي تتمتع بها، لأن دراسة العلامة بمعزل عن صيرورتها أي بمعزل عما تواضع عليه المجتمع، تصبح ضربا من المستحيل. ويواصل سعيد بنكراد فكرته قائلا " ان كل التصورات باختلاف منطلقاتها تتفق على هذا التحديد، فالشكلنة في البدء وفي النهاية، هي تحويل المتصل واللاعضوي واللا تمفصل والعديم الشكل إلى موضوعات ثقافية، تستلزم النظر إليها باعتبارها عصارة الفعل الإنساني وأثاره في ما يحيط بنا"

القراءة التفكيكية:

تعتبر القراءة المفتاح المعول عليه في فتح مغاليق النصوص، فلزام على القارئ إذن أن يتسلح بإجراءات القراءة التي اختارها كمدخل لفهم أي نص كان، وذلك حتى تتحقق عملية التواصل والإبلاغ" والنص هو محور الأدب الذي هو فعالية لغوية انحرفت عن متواضعات العادة والتقليد، وتلبست بروح متمردة رفعتها عن سياقها الاصطلاحي إلى سياق جديد يخصها ويميزها" وعليه كيف للقراءة الواحدة أن تجمع شمل وشتات هذا النص ؟ وكيف لها أن ترصد المعنى الواحد والمباشر؟ خاصة أثناء دراسة نص أدبي جمالي يغلب عليه التلميح والإيحاء ويغيب التصريح.

وإذا حاولنا فهم مصطلح التفكيك فإننا نجد "دانيال تشاندلز" يعرفه كالتالي " تفكيك: هو استراتيجية في التحليل ما بعد بنيوية، انشأها جاك دريدا، يسعى مستخدمو هذه الاستراتيجية إلى تفكيك البنى البلاغية في النص لإظهار كيفية اعتماد المفاهيم الأساسية فيه على علاقتها التقابلية، غير المصرح بها، مع دلالات غير مذكورة"

ومن أهم الركائز التي استند عليها، نجد مفهوم التقابل، وان في هذه التسمية ما يوحي إلى الثنائية والتقابل بين شيئين اثنين وفقط، وهو ما يعرف بالثنائيات: غرب- شرق، رجل –امرأة....

حيث أن الطرف الأول من الثنائية هو الأقوى والأصلح، في حين أن الطرف الثاني يمثل دائما الدونية والبدائية، ومما لا شك فيه أن الطرف الأول من تلك الثنائيات يمثلها الفكر الغربي دون منازع، مكرسا سلطته وهيمنته المطلقة على الآخر.

إن المعنى لدى أنصار الفكر الغربي الميتافيزيقي- في نظر دريدا- واحد وواضح لا غموض فيه، ذلك أن القارئ الغربي يقرأ أو يحلل النصوص وفق مبدأ الثنائية التي تخول له كامل الهيمنة والسلطة وحب التملك والظهور والتميز، مما دفع دريدا إلى تفكيك مقولاتها ، خاصة تمركزها حول معنى واحد وواضح، وفي نظره" يتمثل النص في التحول اللامحدود للمدلولات من خلال التحرك الحر للدال الذي يفلت بطلاقة لاتحد، ولذا فهو غير قابل للانغلاق أو التمركز" وإنما هو منفتح على تعدد القراءات واختلافها وإرجائها.

قائمة المصادر والمراجع:

- ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي.
- سعيد بن كراد، السيميائيات وموضوعها.
- يوسف وغبيسي، النقد الجزائري المعاصر.
- عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير.
- دانيال تشاندلز، أسس السيميائية.